تقديم مركز نهوض للدراسات والبحوث

يستطيع قارئ اليوم أن يتصفَّح ما يشاء من كتب التراث على شاشة هاتفه الذكي، كما يستطيع أن يبحث عن مواضع ورود أي كلمة مفتاحية تثير فضولَه في مئات المراجع والمطولات ببضع نقراتٍ على لوحة المفاتيح. ولكن لم تكن الحال هكذا قبل مائتي عام، ولم تكن المشكلة هي غياب التقنيات الإلكترونية، بل غياب الكتب نفسها. ففي مطلع القرن التاسع عشر، لم يكن «**تفسير الطبري**»، ولا «**مقدمة ابن خلدون**»، ولا «**الأم**» أو «**الرسالة**» للشافعي، ولا «**المدوَّنة**» لسحنون، ولا «**الأغاني**» للأصفهاني- متداولةً في أسواق الكتب والورَّاقين، فقد كان كثيرٌ من هذه الكنوز حبيسًا -دون فهرسة- في رفوف الخزائن القديمة في مكتبات المدارس الوقفيَّة وقصور الأمراء والأعيان. وكانت صناعة الكتاب العربي تعيش مرحلةً من الذبول والضعف، إثر عدَّة عوامل تشمل تراجع أعداد القرَّاء وانتقال النشاط العلمي والأدبي إلى الحواضر العثمانية والفارسية، وتشمل أيضًا تفاصيل قصة التدفُّق البطيء والغزير لآلاف الكتب والمخطوطات التي أصبحت في حوزة المكتبات الأوروبية في بواكير عصر الاستعمار والاستشراق، بعد أن خرجت من حوزة ملَّاكها الأصليين بطرق شرعية وأخرى غير شرعية، كما سيفصل المؤلف في الفصل الأول من هذا الكتاب.

ورغم رواج طباعة الكتب في الأوساط الأوروبية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي، فإن تقنية الطباعة لم تدخل إلى العالم الإسلامي على الفور. وعلى خلاف ما يشيع على الألسنة من تعليل هذا التأخُّر بضيق أفق العلماء في الدولة العثمانية، فإن الأسباب التي ناقشها المؤلف في الفصل الثالث تكشف صورةً أكثر تركيبًا وتعقيدًا لعلاقة هذه التقنية بسوق النشر والقرَّاء وثقافة الكتب. وفي نهاية المطاف، دخلت الطابعة الحديثة واجتاحت المطبوعات الحديثة كل العوائق والحواجز التي نُصبت أمامها، سواء في الدولة العثمانية أو في الديار

المصرية والشامية. أما نتيجة ذلك، فكانت سلسلة واسعة من التحولات الاجتماعية والفكرية التي أعادت تشكيل فضائنا الفكري والثقافي على النحو الذي نعرفه اليوم.

فبعد أمدٍ من سيادة نظام التعليم المدرسي، الذي آثر شروح المتأخرين ومعتمد المذاهب الفقهية والعقدية على كتب المتقدمين المؤسِّسة للعلوم والجامعة لطائفة أوسع من الآراء والمذاهب، شهد القرنان الماضيان تفاعلاتٍ فكريةً كبرى، لم يكن كثيرٌ منها صدًى لوفود الكتابات الغربية وثقافة الحداثة، بل كان لاستخراج نفائس كتب التراث المنسيَّة وإعادة طباعتها حظٌّ وافرٌ في إثارة النقاشات حول مختلف قضايا التاريخ والأدب والفقه والعقيدة، وفي فتح أبوابٍ واسعة لفهم أبعاد الثقافة الإسلامية وتاريخها وعلومها. إن إحدى الحقائق -وربما المفارقات- التي يُسهِم هذا الكتاب في ترسيخها وتبيين أبعادها لدارسي ما يُعرف بـ «عصر النهضة» العربي، هي أن هذا العصر قد شهد موجةً غير مسبوقة من إحياء كتب التراث الإسلامي، حتى إن قرَّاء ذلك العصر -الذي يُدرس غالبًا من جهة تأثُّره بالثقافة الحديثة وجدالاتها- كانوا أعرفَ بالتراث وأوثقَ اتصالًا بجوانبه المتنوِّعة من «التقليديين» الذين عاشوا قبل ذلك بقرنٍ أو قرنَيْن.

وإن أردنا التبسيط، فهذا كتاب عن تاريخ الكتب، وعن رحلة المخطوطات المنسيَّة إلى المكتبات العامَّة، وعن إعادة اكتشاف كلاسيكيات التراث العربي بالأخص؛ ولكن محتوى الكتاب في حقيقة الأمر أوسع من ذلك، فهو أيضًا تأريخ للتحولات الفكرية والاجتماعية والمؤسسية التي صاحبت إعادة الاكتشاف هذه، وهو كذلك وثيقة تاريخية ممتعة ومليئة بالروايات الشيِّقة لشبكة الأشخاص والفاعلين الذين شاركوا في هذه المسيرة، جمعًا واستخراجًا لدفائن التراث، وتصحيحًا وتحقيقًا لمخطوطاته، وتأسيسًا وتطويرًا لتقاليد التحقيق والطباعة، وجدالًا حول مضامين هذا التراث والموقف المنهجي منه.

يبدأ هذا الكتاب بقصة شخصية دفعت المؤلف إلى الاهتمام بعالم المخطوطات ونشراتها المطبوعة، ثم تتوالى القصص وتتشابك دروب أصحابها: أحمد بك الحسيني، وعبد الحميد بك نافع، وأحمد تيمور وأستاذه حسن الطويل، وأحمد

زكي، وطاهر الجزائري، ومحمد عبده وتلميذه محمد رشيد رضا، وعائلة الألوسي، وجمال الدين القاسمي، وطه حسين، ومحمود شاكر وأخوه الأكبر أحمد وابن خالهما عبد السلام هارون، وغيرهم الكثير. إننا أمام لوحة متنوِّعة الشخوص والمؤثرات تأخذ بيد القارئ لتصور له مرحلة في غاية الأهمية من مراحل الحياة الفكرية في القرنين الماضيين.

أما مؤلف هذا الكتاب فهو البروفيسور أحمد الشمسي، الأستاذ المشارك في جامعة شيكاغو، والمتخصِّص في تاريخ الفكر الإسلامي، وفي تطوُّر مدارسه العلمية وتياراته الثقافية، بالإضافة إلى اهتمامه الخاص بالتاريخ الفكري والاجتماعي لتطور الفقه الإسلامي. وليس غريبًا أن نعرف أن أحد المساقات التي يدرسها مؤلف هذا الكتاب -وهو مساق عريق تمتاز به جامعة شيكاغو- هو مساق «الكتب العظيمة»، الذي يضع أمهات الكتب وتاريخها وسياقاتها منهاجًا يتدارسه الطلبة مع أستاذتهم.

ينبع اهتمام **مركز نهوض للبحوث والدراسات** بترجمة هذا الكتاب ونشره من اهتمامه الأكيد بتحولات الفكر العربي في بواكير العصر الحديث، وإبراز صيغ العلاقة بالتراث والحداثة في سياق التحولات التاريخية والاجتماعية والفكرية التي شهدتها الحواضر العربية والمسلمة في القرون الماضية. كما يُعنى المركز بالمعالجات المنهجية الرصينة، التي تبادر إلى استعمال أدوات العلوم الاجتماعية في دراسة التحولات الفكرية لربطها بسياقات عصرها دون تعسُّف. وقد نشر المركز في هذا السياق العديدَ من الكتب ذات الصلة، منها كتاب «**تطور المنطق العربي (١٢٠٠-١٨٠٠م)**» لخالد الرويهب، وكتاب «**أنثروبولوجيا الفقه الإسلامي: التعليم والأخلاق والاجتهاد الفقهي في الأزهر**» لآريا نكيسا، و«**أثر مدرسة الحقوق الخديوية في تطوير الدراسات الفقهية (١٨٨٦-١٩٢٥م)**» لمحمد إبراهيم طاجن، وغيرها من الكتب والدراسات المنشورة على موقع المركز.